الفصل الأول

لقد حكم السحر العالَم قبل أن أكتشف معجزة العلم.

كان السحـر ومـا رافقه من غموض حاضريْنِ فـي الأجواء على الدوام، مانحيْنِ أيّايّ أول ذكرياتي أيام الطفولة (أنقذني والدي حينها من موت محتوم، فحظي بلقب البطل الذي ما زال يلازمه حتى اليوم).

كنـت فـي السادسة من عمري ألعب في الشارع. اقترب منّـي بعض الرعاة من الصبية الذين كانوا يغنون ويرقصون. كان ذلك في قرية ماسيتالا القريبة من مدينة كاسونغو، حيث كانـت عائلتي تعيش في مزرعة. كان هؤلاء الرعاة يعملون لـدى مُزارِعٍ يسكن قريباً، ويمتلك كثيـراً العديد مـن الأبقار. وقد أخبروني عـن كيفية اعتنائهم بالقطيـع حينها، وعن الكيس الكبيـر الـذي وجدوه مُلقًى على قارعة الطريق، وتبيَّن لهـم – بعد فتحه– أنّه مليء بالعلكة. أتتخيّل كنزاً كهذا؟ كنت أُحبّ العلكة كثيراً.

سأل أحدهم: **هل نعطي الصغير بعضاً منها؟**

حبست أنفاسي، ولم أتحرّك. كانت هنالك أوراق أشجار ميتة عالقة في شعري.

قال آخر: **لِم لا؟ انظر إلى حاله.**

وضـع أحد الصبية يده في الكيس، ثمّ أخرج حفنة من قطع العلكة، واحدة من كلّ لون، ثـمّ وضعها في يدي. دسست القطـع جميعها في فمي. غادر الصبيـة، وأحسست بالعصارة الحلوة تنزلق من ذقني وتلطخ قميصي.

في اليوم اللاحق، كنت ألعب تحت شجرة المانجو، حين توقّف تاجر يركب درّاجة هوائية قرب والدي، وأخذ يجاذبه أطراف الحديث. قال بأنّه أسقط أحد أكياسه حينما كان عائداً من السوق في اليوم السابق. وعندما أدرك ما حدث، وعاد ليبحث عنه، كان الكيس قد اختفى. ثمّ أضاف قائلاً: **إنّ الكيس كان مملوءاً بالعلكة.**

وكان بعض التجّار قد أخبروه عن صبية رعاة يوزّعون العلكة في القرى، الأمر الذي أغضبه جدّاً. إنّه يجول في المنطقة منذ يومين على درّاجته الهوائية بحثاً عن هؤلاء الصبية. وها هو ذا يُطلِق تهديداً مخيفاً: **لقد ذهبت لمقابلة سينغانغا، وكلّ مَنْ أكل شيئاً من العلكة سيندم.** كانت **سينغانغا** هي العرّافة.

كنت قد ابتلعت العلكة منذ وقت طويل. وقد أصبحت ذكراها الحلوة الآن كسم مرير يسري على لساني. بدأت أتصبّب عرقاً، وأخذ قلبي يخفق بشدة. ركضت من دون أن يلحظني أحد نحو أجمة أشجار اليوكالبتوس خلف منزلي، انحنيت على شجرة؛ محاولاً التخلص من الدليل. بصقت، ثمّ وضعت إصبعي في حلقي، فعلت كلّ شيء لتخليص جسدي من اللعنة. أفرغت ما في جعبتي، في الوقت الذي لوَّن فيه لعابي بعض أوراق الشجر عند قدمي، فأخذت أغطّيها بالتراب.

ولكن، بدا حينها أنّ غيمة سوداء قد غطّت الشمس، وشعرت أنّ العين العظيمة للساحرة تراقبني من بين الأشجار؛ لقد أكلت حلواها. لذا، فأنا الآن معرَّض لغضبها ولعنتها. زارتني المشعوذات تلك الليلة في أثناء نومي، حيث أخذْنَني على متن طائراتهن، وأجبرْنَني على القتال، ثمّ تركْنَني للموت في ساحات القتال السحرية. وبينما كانت روحي تهيم وحيدة فوق الغيوم، صحوت في الصباح وجسدي يرتعش من شدة البرد. لقد أحاط بي الخوف من الموت مثل الحمّى.

بدأت أبكي بشدة لدرجة أنّني لم أستطع تحريك ساقي. انهمرت الدموع ساخنة على وجهي، ما جعل أنفي يزكم برائحة السم. لقد كان يسري في مختلف أنحاء جسدي. هربت من الغابة بأقصى سرعة؛ محاولاً التخلص من العين السحرية الكبيرة. جريت حتى وصلت

المنـزل لأجـد أبي مستنداً إلى الجـدار ينتف كومة الذرة. أردت أن أرمـي بجسدي عليه كي يحميني من الشيطان.

قلت وأنا أسترسل في البكاء: «**لقد كنت أنا. أنا مَنْ أكل العلكة المسروقة. أبي، لا أريد أن أموت. لا تدعهم يأخذونني**».

نظر إلي والدي هُنيهة، ثمّ هزّ رأسه.

قال: **هو أنت إذن!**، ثمّ ارتسم على وجهه ما يشبه الابتسامة.

ألم يُدرِك أنّ أمري قد انتهى؟

قـال: **حسناً. ثـمّ نهض عن كرسيه. كانـت ركبتاه تطقطقان كلّمـا نهض. كان والدي رجلاً ضخماً. ثمّ حدجني ببصره قائلاً: لا تقلق، سأبحث عن التاجر، وأشرح له ما جرى. أعتقد أنّنا سنجد حلاً**».

صورتي طفلاً أقف مع أبي في قرية ماسيتالا. كان الرجل الأضخم والأقوى في العالم بالنسبة إليّ.

مشـى والدي في تلـك الظهيرة مسافة ثمانية كيلومترات للوصـول إلى مكان يُدعى ماساكا حيث كان يعيشـ التاجر. أخبره بما حصـل، وكيـف أنّ الفتية الرعـاة هم الذين أعطوا ابنه بعضـ العلكة المسروقة. بعدئذٍ، دفع والدي ثمن الكيس كاملاً من دون نقاش؛ مبلغ يوازي أجر أسبوع.

في تلك الأمسية، وبعد أن تمكّن والدي من إنقاذي، سألته عن اللعنة، وعمّا إذا ظنّ فعـلاً أنّها قد استحوذت على نفسي وحياتي، فارتسمـت علـى مُحَيّاه ملامـح الجدية، ثمّ قـال: **نعـم، لقـد عالجنـا الأمـر فـي الوقت المناسـب**. ثمّ انفجر ضاحكاً على نحوٍ أدخل

السـرور في قلبي. وكان الكرسي الخشبـي يئن بفعل الحركة الناجمة عن صدره الضخم. ثمّ أضاف: **مَنْ يدري ما كان ينتظرك يا ويليام؟**.

كان أبـي قويّاً، ولم يكن يهاب السحر، لكنّه كان على علم بالقصص التي تتعلق به. كنّا نشعـل مصباحاً، ونتحلّق حوله في غرفة المعيشة في أثناء الليالي غير المقمرة. كنت أجلس أنا وشقيقاتي عند قدمي والدي الذي كان يشرح لنا كيف تسير الأمور في هذا العالَم، وكيف أنّ السحـر موجود منذ بدء الخليقة. ثمّ أخبرنا أنّ بلاد المزارعين الفقراء، كانت تئن تحت وطـأة المشـكلات والصراعات التي تدور رحاها بيـن الربّ والإنسان. لذا، عُـدَّ السحرُ قوّةً خارقة ثالثة لإيجاد توازن في العالَم. لم يكن السحر شيئاً تبصره العين، مثل شجرة أو امرأة تحمـل الماء، إنّما كان قوّة خفية مُهلِكة، مثل الريـح، أو شبكة العنكبوت التي غزلت خيوطها جانب الطريق. كان السحر حاضراً في القصص، وكنت أُفضِّل قصة الزعيم مواسي ومعركة كاسونغو.

حكـم شعـب تشيوا السهـول الوسطى منذ بدايـة القرن التاسع عشر حتـى يومنا هذا. وقـد نزحنا إلـى هناك منذ عشرات السنين قادمين من جنوبـي الكونغو في زمن سادت فيه الحـروب والأمراض، واستقر بنا المقام فـي تلك البقعة، حيث التربة حمراء خصبة والنهار طويل.

فـي أثناء تلك الحقبة، وفي المنطقـة الشمالية الغربية من قريتنـا تحديداً، بدأ وحيد قرن أسود متوحش يعيث في الأرض فساداً. وقد تميَّز هذا الحيوان بضخامة حجمه الذي كان يفوق حجم الشاحنة، وبقرنيه الطويلين اللذين يشبهان ذراعي والدي، والحادّين كالخناجر. كان النـاس والحيوانـات حينها يطفئـون ظمأهم من النبع نفسه، في حيـن كان وحيد القرن يغمر نفسه في المياه الضحلة متربِّصاً.

كان زوّار النبع عادة من النساء والبنات، مثل أمي وشقيقاتي. وبينما كنَّ يهممنَ بوضع دلائهـم في المـاء، كان وحيد القـرن يهاجمهنَّ، ويُعمِـل الطعن فيهنَّ، ويسحقهـنَّ بحوافره الجبّـارة، ويحوّلهـنَّ إلى مجرّد أشـلاء غارقة بالدماء. لقد قتل وحيد القـرن الأسود هذا ما يزيد على مئة شخص خلال أشهر عدّة.

وحين قُتِلت إحدى فتيات عائلة تشيوا الحاكمة سَحقاً تحت حوافره عند النبع في ظهيرة أحد الأيام، غضب الزعيم وقرّر الانتقام، فجمع حكمائه ومقاتليه لوضع خطة محكمة.

قال الزعيم: **إنّ هذا المخلوق شرّ صرف. كيف لنا أن نتخلّص منه؟**.

كان هنالك كثير من الآراء، لكنّ أحدها لم يُعجب الزعيم. ثمّ وقف أحد مساعديه أخيراً ليقول: **أعرف رجلاً في ليلونغوي. إنّه ليس زعيماً، لكنّه يمتلك بعض بنادق أزونغو، إضافة إلى أنّه ماهر جدّاً في شؤون السحر. أنا على يقين أنّ حساباته وخبراته في هذا المجال قادرة على هزم وحيد القرن الأسود.**

عُرِف ذلك الرجل باسم مواسي تشيبهاودزو، وكان مشهوراً في مختلف أرجاء المملكة؛ نظراً إلى تفوّقه في مجال السحر، حتى إنّه كان يصيد بالسحر. اسمه يعني **العشب القاتل**؛ لأنّه كان قادراً على التخفّي بصورة كومة من الأعشاب للإيقاع بفريسته. قطعت جماعة الزعيم مئة كيلومتر للوصول إلى ليلونغوي واستدعاء مواسي، الذي وافق بدوره على مساعدة أخوته في كاسونغو.

وصل مواسي إلى النبع صبيحة أحد الأيام قبل شروق الشمس، حيث وقف بين الأعشاب الطويلة قرب الضفة، ثمّ رشّ ماءً سحريّاً على جسده وبندقيته؛ ما جعله يختفي وسلاحه، وأصبحا مجرّد موسيقا يحملها النسيم. جاء وحيد القرن بعدها بدقائق مزمجراً من على التل وسار باتجاه النبع. وفي اللحظة التي غطس فيه بجسده الثقيل في المياه الضحلة، تسلّل مواسي خلفه وأطلق النار على رأسه، فخرّ وحيد القرن صريعاً.

بدأت الاحتفالات فوراً بتناول القرويين كافة – وعلى مدار ثلاثة أيام– لحم الوحش الفظيع الذي قضى على كثير من الأرواح. وفي ذروة هذه الاحتفالات، أخذ الزعيمُ مواسيَ إلى قمّة أعلى التلال لينظر إلى مناطق نفوذ شعب تشيوا. كان ذلك تلّ موالا وا نينجي، الذي يعني صخرة الذباب الصالح للأكل، والذي سُمّي بذلك تيمّناً بالمنحدر الموجود على قمّته، وبالذباب السمين الشهي الذي يعيش على الأشجار هناك.

وقف الزعيم على قمّة صخرة الذباب الصالح للأكل، مشيراً إلى قطعة أرض كبيرة مليئة بالأعشاب، ثمّ التفت إلى مواسي قائلاً: **سأمنحك جائزة؛ لأنّك قتلت الوحش الفظيع.**

إنّني أمنحك السلطة على هذا الجزء من الجبل، وعلى كلّ ما تقع عليه عيناك من على قمّته. اذهب وأحضر أهلك واجعل هذا المكان وطنك. إنّ هذه الأرض تحت حكمك الآن.

عاد مواسي إلى ليلونغوي وجلب عائلته. وبعد وقت قصير، تمكّن من تأسيس إمبراطورية عظيمة. وتمكّنت مزارعه من إنتاج كميات وافرة من الذرة والخضروات أطعمت سكان المنطقة بأكملها. كان أفراد شعبه أقوياء، ومحاربوه أشداء مهيبي الجانب.

ولكن، في ذلك الوقت اندلعت فوضى كبيرة في مملكة زولو بجنوب إفريقيا؛ إذ بدأ الجيش التابع لشاكا؛ ملك زولو، حملةً دموية لغزو الأراضي المحيطة بالمملكة، فأجبر الخوف والدمار ملايين الناس على النزوح، وكان من ضمنهم شعب نغوني.

توجّه شعب نغوني نحو الشمال مشياً على الأقدام لأشهر عدّة حتى وصلوا أخيراً إلى مناطق تشيوا حيث التربة رطبة وخصبة. لكنّهم كانوا يعانون المجاعة على مدار الساعة بسبب ترحالهم المتواصل. وكانوا كلّما حدث ذلك، جاسوا في مناطق الشمال أكثر؛ طالبينَ المساعدة من الزعيم مواسي الذي كان يُمدّهم بالذرة والماعز. وفي أحد الأيام، وبعد أن حظوا بأعطية أخرى من مواسي، جلس زعيم شعب نغوني متسائلاً: **كيف لنا أن نحصل على هذا الطعام بصورة دائمة؟**

أجاب أحدهم: **نقضي على شعب تشيوا.**

راقت الفكرة للزعيم ناوامبي، فقاد شعبه للسيطرة على صخرة الذباب الصالح للأكل، وعلى كلّ الأرض التي يمكن رؤيتها من على قمّة الصخرة. لكنّهم لم يكونوا على دراية بقوى السحر التي يمتلكها الزعيم مواسي.

لم يمضِ وقت طويل حتى صعد أفراد جيش نغوني – في صباح أحد الأيام– الجبلَ، مرتدينَ جلود الحيوانات، حاملينَ دروعاً ضخمة في يد ورماحاً في الأخرى. ولكن، تمكّن جنود مواسي من رؤيتهم من على بُعْد أميال عدّة. وحين وصل جيش نغوني إلى التلّ، كان جنود مواسي قد تخفّوا على هيئة عشب أخضر، وتمكّنوا من ذبح الغزاة بالسكاكين والرماح. وكان آخر قتلاهم هو الزعيم ناوامبي. لذا، فقد غيّروا اسم الجبل ليصبح «**نغورو يا**

ناوامبي»، الذي يعني «هزيمة ناوامبي الشنعاء». وهذا التل الآن يُظلِّل مدينة كاسونغو التي تقع قرب قريتي.

تناقل الكبار والصغار مثل هذه القصص عبر الأجيال المتعاقبة، حيث تعلّمها أبي من والده (جدّي)، الذي كان طاعناً في السنّ لدرجة أنّه لم يتمكّن من تذكّر تاريخ ميلاده. كان جلده جافّاً مجعّداً، وبدت قدماه كأنّهما نُحتتا من الصخر. أمّا معطفه وسرواله فبدا أنّهما يفوقانه عمراً؛ إذ كانا مليئان بالرقع، ومتدلّيان على جسده كلحاء شجرة معمّرة. كان يلفّ قشر الذرة ليصنع سيجاراً كبيراً يملأه بالتبغ، وكانت عيناه حمراوين من شرب الكاتشاسو؛ وهو مشروب كحولي يُصنَع من الذرة، ويُخلِّف آثاراً سلبية في الجسد، حتى إنّه تسبَّب في إصابة رجال أضعف من جدّي بالعمى.

كان جدّي يزورنا مرّة أو اثنتين في الشهر. وعندما كان يظهر من بين الأشجار مرتدياً معطفه الطويل، ومعتمراً قبعته، ونافثاً الدخان الكثيف من شفتيه، كانت الغابة أشبه برَجل أطلق ساقيه للريح.

كانت القصص التي يرويها جدّي من مكان وزمان مختلفين. فحين كان صغيراً؛ أي قبل مجيء شركة الذرة والتبغ الحكومية وقطعها معظم الأشجار، كانت الغابات كثيفة لدرجة أنّ المسافر كان يضل الطريق فيها. لقد ساد هناك العالَم الخفي، الذي تحالف مع الظلمة في البساتين. كانت الغابة آنذاك موطناً لكثير من الحيوانات البرية، كالظباء والفيلة، والحيوانات المفترسة، كالضباع، والأسود، والفهود، الأمر الذي جعل المكان أكثر خطراً. فقد أخبرني جدّي أنّ أسداً هاجم جدّته حينما كان صبيّاً؛ إذ كانت تعمل في الحقول عند طرف الغابة، محاولةً إبعاد بعض القردة عندما هاجمتها لبؤة على حين غرة. وما إن سمع القرويون صراخها حتى أسرعوا إلى قرع الطبول – لم يكن صوتها سريعاً متناغماً كما في حفلات الرقص أو المناسبات، بل كان بطيئاً ولا يخلو من الجدية –، وكان يُطلَق على إيقاع الطوارئ هذا اسم موسادابوي، بمعنى (**احضر على عجل**). إنّه شبيه بمكالمة الطوارئ، إلّا أنّ مَنْ يهبّ للمساعدة هم القرويون لا الشرطة.

كان الوقت قد فات حين حضر جدّي والبقية مستلّون رماحهم ومشهِرون أقواسهم وسهامهم. لقد شاهدوا اللبؤة – كانت كبيرة لدرجة أنّ حجمها يماثِل حجم بقرة– وهي تجرّ الجدّة بين الأشجار الشائكة، وترمي جسدها في الأجمة كما لو كانت ترمي فأراً. استدارت بعدها لتواجه الجمع، مطلِقة زئيراً مخيفاً، ثمّ اختفت مع فريستها. ولسوء الطالع، لم يتمكّن أحد من استعادة جثمان هذه المرأة المسكينة.

يقول جدّي: إنّ الأسد حين يتذوّق لحم البشر، فإنّه لا يتوقّف حتى يفترس قرية كلها. لذا، قاموا بإخطار السلطات البريطانية التي كانت تسيطر حينئذٍ على بلادنا. فأرسلت جنوداً إلى الغابة قاموا بدورهم باصطياد اللبؤة. ثمّ عُرِضت جثتها في ميدان القرية ليراها الجميع.

جدّي يعرض قوسه وسهمه المصنوعين يدويّاً. كان يستخدمهما لقتل الأسود والوحوش البرية. يقول الناس: إنّ جدّي كان أعظم صياد في المنطقة.

بعد هذه الحادثة بوقت قصير، كان جدّي يصطاد في الغابة، فصادف رجلاً كان قد تعرّض لعضة من أفعى الكوبرا. كانت الأفعى مختبئة بين الأشجار حينما لدغت الرجل في رأسه أثناء سيره. وسرعان ما تحوّل لون جلده إلى الرمادي، ومات بعدها بدقائق. أخبر جدّي قاطني أقرب القرى إلى مكان الحادثة بما حدث، وما لبث أن وصل أهل القرية برفقة عرّافهم. قام العراف بوضع قدمه على صدر الرجل، ثمّ رشّ بعض الدواء في الغابة. بعدها بثوان، دبّت الحياة في الأرض الرطبة ،في حين انسلّت مئات من أفاعي الكوبرا من الظلّ وتجمّعت حول الجثة بفعل تأثير السحر.

جثم الساحر على صدر الرجل الميت، ثمّ شرب عصيدة سحرية سالت من قدميه إلى الجثة، فبدأ الرجل الميت بتحريك أصابعه، ثمّ يداه، قائلاً: (**ساعدوني على النهوض**). ثمّ نهض وواجه جيش الأفاعي.

قـام الاثنـان بتفقّد أنياب الأفاعـي بحثاً عن تلك الأفعى التي قتلـت الرجل. وقد جرت العادة أن يقوم الساحر بقطع رأس الأفعى المذنبة بسرعة. ولكن، هذه المرّة أشفق الضحية عليها ولم يقتلها.

بعد ذلك، دفعت ثلاثة جنيهات استرلينية للساحر لقاء خدماته. لقد شاهد جدّي ذلك بأمّ عينيه.

أمّـا والدي فقد اعتـاد – في صغره – مرافقة جـدّي في رحلات الصيـد. كانت الغابة خطرة حينها لدرجة أنّ الصيادين كانوا يمارسون طقوساً دينية قبل دخولها. وكانت رحلات الصيـد تبدأ بقيام رجل يُدعى موينـي تشيسوكولي (يعني قائد الصيد) بدعوة الرجال الذين ينـوون الصيد مـن القرى المجاورة. وكان هذا القائد هو الـذي يُحدِّد مكان الصيد وزمانه، ويختار الجزء الذي يريد من الطريدة (الجزء الخلفي منها عادة)، وكان جدي هو القائد في أغلب الأحيان.

وقـد جـرت العادة ألّا يُسمَح للقائـد في الليلة التي تسبق الصيـد بالنوم مع زوجته، ولا حتـى في الغرفة نفسهـا؛ وذلك بهدف المحافظة على تركيزه ما أمكـن، وضمان نيله قسطاً وافـراً مـن الراحة؛ إذ إنّ فقدان التركيز يجعل المرء غير مُبالٍ في الغابة، والأدهى من ذلك أنّه يجعلك معرّضاً للسحر. في تلك الليلة، وفي أثناء الإقامة عند الجيران أو في كوخ منفصل مـع الأبنـاء، يغلي القائـد ذرة حمراء مخلوطة بجـذور معينة وأدوية، ثـمّ يوزِّعها بين رجاله صباحاً. كان ذلك جزءاً من السحر؛ فالجميع كان يعتقد أنّ ذلك يقيهم الأخطار.

اعتـاد الصيادون أيضاً – قبل الانطلاق – إعطـاء تعليمات لزوجاتهم تنصّ على عدم خروجهنّ من المنزل حتى نهاية وقت الصيد، والنوم عند أسرهنّ إن تمكّنّ من ذلك؛ إذ كان يُعتقد أنّ هذا الأمر يجعل الحيوانات تنام أيضاً، مما يتيح للصيادين التسلّل إليها خلسة.

عندمـا كنت أتجـوّل الغابة وأنا صبي، لم أكـن آبه كثيراً لأفاعي الكوبـرا والأسود؛ لأنّ معظمهـا قد اختفـى. ولكن، بقيت هنالك أخطار أخرى؛ إذ كانـت أشباح الأشجار على طول الحقول الهادئة تبدو كأنّها تهمس إلى الحاضرين حزنها. وكان أكثر ما يخيفني عند التجوّل هناك هو غولي وامكولو.

كانت غولي وامكولو جماعة سرية من الراقصين، عُهِد إليها، بناءً على طلب الزعيم، أداء طقوس خاصة في أثناء الجنازات، واحتفالات البلوغ المخصوصة بفتيان تشيوا. وقد عُدَّت غولي وامكولو بمنزلة أرواح أجدادنا القدماء التي تُبعَث من الآخرة لتجوب الأرض. لقد تجرّدوا من صفات البشر، واكتسوا بجلود الحيوانات، و تشبه وجوههم وحوش جهنم. لقد كانوا مثل طيور شيطانية تزعق بألم.

حينما كانت جماعة غولي وامكولو تؤدي رقصاتها، كان الجميع ينظرون من بعيد من شدة الخوف؛ فقد كانوا يظهرون من بين الأحراش وهم يمشون على قوائم خشبية طويلة، يطلّون على الحشد من علٍ، ويصرخون بلغات مختلفة. حتى إنّني رأيت أحدهم مرّة يمتطي عموداً من شجر اليوكالبتوس، ورأسه متدلٍّ إلى الأسفل مثل العنكبوت. وحينما كانوا يرقصون، كان يُخيَّل للرائي أنّ ألف رجل يسكن في جسد كلٍّ منهم؛ ألف رجل يتحرّكون في اتجاهات مختلفة.

أمّا في الأحوال العادية التي خلت من العروض، فكان أفراد هذه الجماعة يجوبون الغابات والمستنقعات، بحثاً عن الصبية الصغار لأخذهم إلى المقابر. لا أريد أن أعرف ماذا كان يحدث للمرء هناك. كان مجرّد الحديث عن غولي وامكولو يجلب النحس. ويبلغ الأمر مداه حينما يسمعونك تشكّك بهم، أو تقول أشياء بحقّهم، من مثل: **انظر إلى أيديهم، لديهم أصابع مثلي. إنّهم دجالون.** إنّ فعل ذلك سيعرّضك – لا محالة– للسحر، ولن تجد – حينئذٍ– مَنْ يدافع عنك، ولاسيّما أنّ جماعة غولي وامكولو لا تصغي إلّا للزعيم. وحين كانوا يَظهرون في قرية ما، كان الأطفال والنساء كافة يتركون ما بأيديهم ويفرّون هاربين.

حدث ذات مرّة – عندما كنت صغيراً جدّاً– أن ظهر أحد الراقصين في فناء منزلنا، وهو يختال كما الديك، ويصدر فحيحاً كالأفعى. كان رأسه ملفوفاً بكيس طحين مثقوب من جهة الفم، ويخرج منه خرطوم طويل عند الأنف. كان والديّ حينها في الحقول. لذا، فقد لجأت أنا وأختيّ إلى الأشجار، ثمّ شاهدنا الشبح العابر يسرق إحدى دجاجاتنا.

(تُعَدّ الحمير المخلوقات الوحيدة التي لا تخاف غولي وامكولو. فحين يشاهد حمار أحد الراقصين، فإنّه يطارده في الأحراش ويرفسه بقدميه القويتين. إنّ الحمير شجاعة، لا تسألني عن سبب ذلك).

حاولت أن أتحلّى بالشجاعة مثل صديقي الحمار كلّما مشيت في الغابة. لكنّ المشعوذات والسحرة لا يكشفون هويتهم أبداً. لذا، فلا أحد يعرف أماكن مصايدهم. ثم إن سحرهم الخارق يتجلّى في تلك الأماكن حيث يمارسون من الطقوس أشكالاً عدّة. يقال: إنّ رجالاً صلعاً يظهرون في الطرق خارج نتشيسي، طولهم عشرون قدماً؛ يكونون قلّة في البداية، ثمّ سرعان ما يصبح تعدادهم بالعشرات. تمرّ شاحنات أشباح الطرق هذه في الليل، تأتي مسرعة بأضوائها الساطعة ومحرّكاتها الهادرة. ولكن، ما إن تختفي الأضواء حتى يختفي معها كلّ أثر؛ فلا تجد آثاراً للعجلات على الطريق، وفي حال كنت تقود سيارة، فسينطفئ محرّكها حتى مطلع الفجر.

من جانب آخر، تجوب الضباع السحرية القرى في أثناء الليل؛ لتسرق بعض الماعز بما تملكه من فكّين قويين، ثمّ تضعها على أعتاب بيوت السحرة. كما تُرسَل الأسود السحرية لقتل المدينين المتهربين من الدفع، وتقبع أفاعٍ ضخمة كالشاحنات في الحقول بانتظارك.

لكنّ الخطر الذي يحيق بالأطفال أعظم؛ فكما ذكرت، يتحكّم هؤلاء السحرة في جيوش ضخمة من الأطفال الذين ينفّذون أعمال السحر، ويجوسون القرى ليلاً لتجنيد مزيد منهم. يغرونهم باللحم اللذيذ، مُدَّعين أنّ ذلك هو الوسيلة الوحيدة لدخول الجنة. وما إن يلتهم الأطفال قضمة لذيذة من هذا اللحم حتى يتحوّل إلى لحم بشري. ويكون الوقت قد فات حينها؛ فعندما يصبح شرّ الساحر داخلك، فإنّه يتحكّم فيك إلى الأبد.

وعلاوة على إلقاء السحر واللعنات والانتقام، فإنّ المشعوذات عادة يُقاتلنَ بعضهنّ بعضاً؛ ما يتسبَّب في فوضى كبيرة في مملكة الشيطان، ويخلِّف الصراع المئات بين قتيل وجريح. لذا، يُعَدّ الأطفال عناصر مثالية للعمل جنوداً.

يتجمّع الأطفال على متن طائرات المشعوذات ويجوبون السماء ليلاً، ويمكنهم السفر من زامبيا إلى لندن في دقيقة واحدة. وقد تكون طائرات المشعوذات على أيّ هيئة، من

مثـل: حوض خشبي، أو قدر فخاري، أو حتى مجرّد قبعة. يُذكَر أنّ الأطفال يُرسَلون في مهام سحرية إلى منازل السحرة الأعداء بغرض اختبار مدى قوتهم، فإذا تعرّض طفل ما للقتل في أثناء العملية، يمكن للساحر – حينئذٍ – تحديد السلاح الذي يستخدمه عدوه، وتطوير سلاح أقوى. وفي ليالٍ أخرى يزور الأطفال مخيمات المشعوذات الأخريات بغرض المنافسة. وفيها تُلعَب مباريات كرة قدم غامضة في حقول غامضة لم أسمع بها من قبل، ويعمد الأطفال الملعونون إلى استخدام رؤوس بشرية بوصفها كرات، ويتنافسون على كؤوس عظيمة من اللحم البشري.

بعد تخلّصي من مأزق تاجر العلكة، شعرت بالخوف خشية أن يُقبَض عليَّ، فحاولت إيجاد طرائق لحماية نفسي. كنت أعرف أنّ المشعوذات والسحرة يعانون حساسية تجاه المال؛ لأنّ وجود النقود يعدّ شرّاً معادياً في نظرهم. ففي حال لمسوا النقود يختفي سحرهم ويعودون إلى هيئتهم البشرية؛ عراة بالعادة. لذا، يقوم الناس بإحاطة جدرانهم وفرشهم بنقود الكواتشا لحماية أنفسهم في أثناء الليل. وفي حال استيقظوا على وقع رجل عارٍ يحاول الهرب، فإنّ شكّهم يكون في محلّه.

توجد طريقة أُخرى لحماية النفس، تتمثَّل في الصلاة قبل النوم كلّ ليلة لتطهير الروح من الشرّ؛ وهو أمر قمت به أيضاً. علماً بأنّ البيوت التي تحوي أشخاصاً يصلّون تكون مخفية عن طائرات المشعوذات التي تحلِّق في الأجواء؛ فهي لا تشاهِد أيّ شيء، كأنّها تمرّ بغيمة.

رجوت والدي في ظهيرة أحد الأيام قائلاً: **أبي، ضع بعض نقود الكواتشا على جدران غرفتي؛ فأنا لا أستطيع النوم ليلاً.**

كان أبي يعرف كثيراً عن قضايا الشعوذة، لكنّه لم يسمح لذلك بالتأثير في حياته. وقد جعله ذلك يبدو أكثر قوّة بالنسبة إليَّ، وبخاصة أنّه حرص والدتي على تنشئتنا تنشئة دينية باتباع تعاليم الكنيسة المشيخية التي كنّا نتردّد عليها باستمرار، والتي علّمتنا أن نؤمِن بأنّ الربّ هو أفضل حام. وقد علّمانا أنّنا حين نفتح قلبنا للسحر، فإنّنا لن ندري ما سيدخل أيضاً. كنّا نؤمِن بالشعوذة، نحترمها ونخافها، لكنّ عائلتي كانت دائماً تؤمِن بأنّ الأيمان هو مَنْ سيسود في النهاية.

كان أبـي يصلِح السياج المحيـط بالحديقة، فأوقف ما كان يفعله، ثمّ التفت إليَّ قائلاً: **سأقص عليك قصة. كنت أعمل في التجارة عام 1979م. وفي إحدى المرّات، كنت أركب في الجزء الخلفي من شاحنة متجهة إلى ليلونغوي لبيع السمك المجفّف في السوق هناك. وكان معي كثير من الرجال الآخرين. فَقَدَ سائق الشاحنة السيطرة عليها فجأة، فقُذِفنا في الهواء. وحينما وقعنا على الأرض، شاهدنا الشاحنة تنحرف باتجاهنا مباشرة. في تلك اللحظة، قلت في نفسي: سأموت الآن لا محالة. لقد آن أواني. ولكن، قبل أن تصلني الشاحنة وتسحق جسدي كالنملة، انزلقت، ثمّ توقّفت. كان هناك كثير من الضحايا ملقون بين العشب، لكنّني لم أُصب ولو بخدش».**

وحينئذٍ، استدار نحوي ليشرح وجهة نظره، بقوله: **كيف لي أن أومن بالسحر والشعوذة بعد ذلك؟ لو كنت ممّن يؤمنون بالسحر لمت في أثناء انتظار مَنْ سينقذني. لقد أنقذتني قوّة الرب. يا بني، احترم السحرة. ولكن، تذكَّر دوماً أنّهم عاجزون إذا كان الرب إلى جانبك.**

كنـت واثقـاً من كلام والدي، لكنّني حرت كيف له أن ينطبق على رامبو وتشاك نوريس، اللذيـن كانا حاضرين في المركز التجاري ذلك الصيف، وسبَّبا كثيراً من الجدل. فقد ظهر هذان الرجلان في أفلام كانت تُعرَض في صالة العرض المحلية، التي لم تكن سوى كوخ ذي سقف من قشّ يحتوي على مقاعد خشبية، وتلفاز صغير، وجهاز تشغيل لشرائط الفيديو. وهو مـا دفع الجميع إلى تسميته بعرض الفيديو. كانت تحـدث أمور رائعة وغامضة ليلاً في ذلك المـكان، لكنّني فوّتها جميعاً؛ لأنّني كنت ممنوعاً من الخـروج ليلاً. وقد عوَّلت بدلاً من ذلك على القصص التي سمعتها من أصدقائي الذين يعيشون على مقربة منّي وأهلهم أقلّ حزماً؛ إذ اعتاد هؤلاء الأطفال – من شاكلة بيتر كامانغا– الالتقاء بي عند مجيئي في اليوم التالي.

قـال بيتـر: **رأيت أجمل الأفلام ليلة أمس؛ إذ قفز رامبو من على قمّة جبل، وكان يُطلِق النار في أثناء سقوطه حتى استقر على قدميه. لقد مات كلّ مَنْ واجهه، وتفجَّر الجبل بأكمله.** ثـمّ قبض علـى رشاش وهمـي، وأخـذ يُطلِـق أعيـرة نارية على طاحونة الذرة.

قلت: يا إلهي! متى سيبدأون عرض تلك الأفلام خلال النهار؟ فأنا لا أتمكّن من رؤية أيّ شيء.

كانت صفات رامبو وقوّات الدلتا تثير حيرة بعض الأشخاص الذين لم يتخيّلوا قدرة رجال على التملّص من جيوش بأكملها، وقتلهم كثيراً من الأعداء في الوقت نفسه.

كانت الليلة التي عُرِض فيها فيلم (*Terminator*) صادمةً بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. وكان بيتر لا يزال ذاهلاً عندما لقيني في الصباح اللاحق؛ إذ قال: **شاهدت يا ويليام فيلماً ليلة أمس ما زلت عاجزاً عن فهم كُنْهه البتة. فقد تعرّض رجل لإطلاق نار في جنبه الأيسر، والأيمن، وفي بطنه، لكنّه تمكّن من البقاء حيّاً. ثمّ فجَّر أعداؤه ذراعيه وساقيه وحتى رأسه، لكنّ عيناه بقيتا على قيد الحياة. أؤكّد لك ذلك، لا بُدّ من أنّ هذا الرجل هو أعظم ساحر عرفه العالَم.**

بدا الأمر شائقاً، فقلت: **هل تعتقد أنّ هؤلاء الأمريكيين يملكون هذا النوع من السحر؟ إنّه أمر لا يُصدَّق.**

هذا ما رأيته. أؤكّد لك أنّ الأمر حقيقي.

ومع أنّني سأنتظر سنوات عدّة بعدها؛ لأشاهد فيلماً في عرض الفيديو أول مرّة، إلّا أنّ الأفلام كانت تؤثّر كثيراً في الألعاب التي نمارسها. كانت إحداها تُسمّى لعبة أمريكا ضد فيتنام، وهي تُلعَب بمسدسات مزيفة مصنوعة من شجيرة تُدعى مبولوني.

كنّا نضع المسدسات بإزالة اللبّ من جذوع شجيرة المبولوني، على نحوٍ يماثل فكّ أجزاء قلم الحبر الجاف، ثمّ نستخدمها أداة تلقيم وزناد. وبعد إزالة اللبّ، كنّا نمضغ قطعاً من لبّ الذرة، ثمّ نضعها في الماسورة (الأنبوبة)، ونغلِق عليها بأوراق ممضوغة. وعند سحب أداة التلقيم إلى الخلف، كان يتولَّد ضغط كافٍ لرشّ الخصم بوابل من المخاط.

كنت قائد فريقي، في حين كان ابن عمي جيفري قائد الفريق المنافس. قسمنا بعضنا، إلى جانب مجموعة من الأقارب والجيران، إلى فرق تضمّ كلّ منها خمسة أفراد، ثمّ أخذنا

نصطـاد بعضنـا فـي حقول الذرة، وعلى طـول الساحـة الترابية التي تفصـل بيتنا عن بيت جيفري.

وفـي ظهيـرة أحد الأيام، وجَّهـت رفاقي قائلاً: **اذهبـوا يساراً وأنـا سأذهـب يميناً**، ثمّ زحفنا على ركبنا ومرافقنا فوق التراب الأحمر. لم نتحلَّ يوماً بالنظافة.

وفـي هذه الأثناء، لمحت جـزءاً من سروال جيفري من على زاويـة البيت، فتسلّلت في الاتجـاه المعاكس من دون أن أُثير هلع الدجاج، ثمّ ربضـت عند الزاوية حالما أمَّنت نفسي. لقد كان كميناً سهلاً.

تونغا.

حشـرت أداة التلقيم في الماسورة، ثـمّ أطلقت وابلاً من اللعاب الأبيض والمخاط على وجه ابن عمي، فسقط على الأرض ممسكاً قلبه.

آه، مايو ايني! لقد مت.

كان الفريق الذي يفوز أولاً يُرشَّح عادة للعب دور الجيش الأمريكي في اللعبة؛ نظراً إلى تفوّق أمريكا وهزيمتها دائماً لفيتنام في عرض الفيديو.

لقـد كوّن ثلاثتنا عصابـة لا يُستهان بها: أنا، وجيفري، وصديقنـا جيلبرت، الذي كان والده زعيماً لمنطقة ويمبي كلها. كان الجميع يدعو والد غيلبرت الزعيم ويمبي، مع أنّ اسمه الحقيقي هو ألبرت موفات.

وعنـد الشعور بالملل والسـأم من لعبة أمريكا ضد فيتنام، كنّـا أنا وجيفري نبحث عن غجيلبرت. وكان الذهاب إلى بيته حافلاً بالأحداث دائماً، من باب أنّ أعمال الزعيم لا تنتهي. وكمـا هو الحال دائمـاً، فقد وجدنا طابوراً من سائقي الشاحنـات، والبائعات، والمزارعين، والتجار ينتظرون في الخارج تحت شجر اليوكاليبتوس لبثّ مشكلاتهم وشكواهم، وكلّ منهم يحمـل إمّـا دجاجة تحت إبطه، وإمّا حفنـة نقود في يده هديةً لقائدهـم العظيم. وقد اعتاد الناس مناداة الزعيم بلقب (**تشارو**) عند لقائه، وهو يعني (حاكم البلاد جميعها).

قال المُزارِع الواقف على عتبة الباب: **أودي أودي**، بمعنى مرحباً، أيمكنني الدخول؟

وقف السيد نغواتا، مراسِل الزعيم وحارسه الشخصي عند الباب، مرتدياً سرواله القصير وجزمته العسكرية، في هيئة شبيهة برجل الشرطة. وقد تمثَّلت وظيفة السيد نغواتا في حماية الزعيم، وتصنيف الزوّار، فضلاً على مهمة جمع الدجاج.

قال لنا: **هيّا ادخلوا**.

جلس الزعيم على كنبة، مرتدياً قميصاً مجعّداً وسروالاً جميلاً؛ وذلك خلافاً لما يرتديه رجال الأعمال، الذين يأنفون من لبس الجلد والريش (يحدث ذلك في الأفلام فقط). كان الزعيم ويمبي يحب قطته التي يخالِط البياض والسواد جسدها، والتي لم يكن لها اسم؛ ففي مالاوي، الكلاب وحدها تُمنَح أسماءً، لا أعرف السبب في ذلك. كانت القطة تجلس دائماً في حضن الزعيم، وكانت تموء باستمرار، في حين يداعب **تشارو** رقبتها.

تشارو، **تشارو**، قالها المُزارِع وهو منحنٍ على ركبته، ومصفِّق علامةً على تقديم الاحترام، **لدينا مشكلة تتطلّب تدخّلك. ابن أخي اعتدى على الأرض التي وهبتني إيّاها قبل خمسة عشر عاماً. أريد مساعدتك حقناً للدماء.**

أجاب الزعيم: **حسناً، دعني أُفكّر في الأمر، وأقوم ببعض التقصي. عُدْ إليَّ يوم الأحد، وسأكون قد عثرت لك على حلّ ما.**

حسناً، زيكومو كوامبيري، تشارو. كلّ الشكر والاحترام لك.

انتظرنا إلى حين غادر المُزارِع، ثمّ خاطبنا السيد نجواتا، قائلين: **أتينا لرؤية جلبيرت**، قلناها في أثناء ولوجنا الباب.

همم.

كان غلبيرت في غرفته يُغنّي أثناء الاستماع لشريط بيلي كاوندا الذي اختير مؤخّراً بوصفه أفضل موسيقار في مالاوي هذا العام. كان غلبيرت يُغنّي بصوت جميل على الرغم

مـن أنّـه كان ما يزال صغيراً، الأمر الذي سيساعده علـى تسجيل ألبومين لاحقاً في بالنتير. كان صوتي أشبه بصوت دجاجة حبشية تتغوّط على شجرة، لكنّني لم أدع ذلك يؤثّر فيَّ.

– غلبيرت، بو.

– بو؟.

– حاد؟

– حاد!.

كانـت تلك لغتنا الدارجـة، وقد حرصنا على استخدامها كلّمـا التقينا. وكلمة «**بو**» **هي** اختصار لكلمة «**بونجور**»؛ أي طاب يومك، وقد بدأ استخدامها من باب التباهي وتقليد بعض الغلمان الذين يتعلّمون الفرنسية في المدرسة الإعدادية. لا أعرف مصدر كلمة «حاد»، لكنّها كانـت طريقتنا في طرح السـؤال الآتي: **هل أنت على ما يـرام؟**. وفي حال كانت الأمور تسير على يرام، يمكنك الذهاب إلى أبعد من ذلك بقول:

– متأكّد؟

– متأكّد!.

– تمام؟

– تمام!.

– آه.

قلـت: **لنذهب إلـى التجاري**، وأقصد هنـا المركز التجاري. فقد سمعـت أنّ السكارى أراقوا في الأوفيسي ليلة أمس.

كنـت أشيـر هنا إلى مركز أوفيسـي للخمور، وهو مكان ممنوع؛ ما جعـل الأنظار تتطلّع إليـه. يقـع أوفيسي على مشارف المركز التجـاري، وكان أحد أواخـر المتاجر التي ما زالت

هنـاك قبل شـقّ الطريق الموصِل إلـى بلدة تشاماما. كانـت الموسيقا الصاخبـة تُسمَع من ردهـات المـكان حتى ساعة الظهر. وهنـاك، كان يظهر عند الباب رجـال بعيون مضطربة، يدخنون السجائر، ثمّ يرمون عبوات خمر من الكرتون الفارغ لتتكوّم مع مثيلاتها في التراب. في حين كان معظم الناس يرون تلك العبوات نفايةً، كنّا نَعُدُّها كنزاً وفرصاً سانحة للكسب.

وعلى الرغم من ترعرعنا (أنا وجيفري وغلبيرت) في مكان صغير بإفريقيا، فإنّ ما كنّا نفعله كان مشابِهاً لما يفعله الأطفال في مختلف أنحاء العالم، مع فارق بسيط يتمثَّل في فعله بمـواد مختلفـة قليلاً. وأعرف الآن مـن أصدقائي الأمريكيين والأوروبييـن أنّ ذلك صحيح. يستخـدم الأطفال في كلّ مكان الأساليب نفسها لتسلية أنفسهم؛ فإذا نظرت إلى الأمر بتلك الطريقة، ستكتشف أنّ العالَم ليس كبيراً كما تظن.

كنّـا نحـب الشاحنات بصرف النظر عـن أنواعها؛ الكبيرة ذات الأطنـان الأربعة التي كانـت تهدر في الأنحاء مثيرةً الغبار، أو الصغيـرة ذات نصف الطن كالتي تذرع طريق بلدة كاسونجو جيئةً وذهاباً في ساعة، وينحشر في جزئها الخلفي الركّابُ كأنّهم في قفص مليء بالدجـاج. لقد أحببنـا الشاحنات حقّاً. لذا، كنّا نتنافس أسبوعيّـاً على بناء أكبر الشاحنات وأقواهـا. وفي المقابل، فقد حظـي أصدقائي الأمريكيون برفاهيـة الحصول على شاحنات صغيـرة مجمَّعـة، بشرائها مـن أيّ مجمع تجاري. أمّـا نحن فكان علينا بناؤهـا بأنفسنا من الأسلاك وعبوات الكرتون الفارغة تلك. ومع ذلك، فقد كانت شاحناتنا جميلة كشاحناتهم.

كانت تلك العبوات الفارغة التي يلقيها السكارى في أوفيسي تحتوي أحياناً على تشيبوكو شيـك شيك، وهو نـوع رائج في مالاوي مـن الجعّة، يُصنَـع بتخمير الـذرة. كان طعمه مُرّاً، ويحتـوي على قطع من الـذرة المستقرة في القعر، الأمر الذي يتطلّـب رجّ العبوة قبل شربها والاستمتـاع بمذاقها، ومن هنا جاء سبب تسميتها. إنّهـا مغذية في الواقع، صدّقتم الأمر أم لا. أنا عن نفسي لا أتعاطى الكحول، لكنّني سمعت أنّ على المرء شرب بضع عبوات من شيك شيـك ليصل إلى حـدّ الثمالة. لذا، كان الرجال في أوفيسي يشربـون قدر المستطاع قبل أن يرموا العبوات على قارعة الطريق.

كانت تلك العبوات مثالية لصنع هيكل لعبة الشاحنة حال غسلها من بقايا الخمر. وقد استعملنا أغطية زجاجات الجعّة عجلاتٍ، كما كنّا نستخدمها للعدّ في المدرسة (ثلاثة أغطية من مشروب كوكا كولا زائد عشرة أغطية كارلسبيرغ يساوي ثلاثة عشر).

قطفنا المانجو من شجر الجيران، ثمّ بادلناها ببعض الأسلاك التي استخدمناها في صنع المحاور وتثبيت العجلات المصنوعة من أغطية الزجاجات. وقد اكتشفنا – فيما بعد – أنّ أغطية زجاجات زيت الطبخ تصلح لاستخدامها عجلاتٍ على نحوٍ أفضل من غيرها، وهو أمر يجعل الشاحنات تدوم مدّة أطول. واستخدمنا شفرات الحلاقة التي يستعملها آباؤنا لقص نماذج بلاستيكية، وإعطاء كلّ شاحنة علامتها التجارية المميّزة. وبذلك، أصبحنا قادرين عند رؤية آثار العجلات على الأرض، على معرفة أكانت الشاحنة تابعة لأسطول كامكوامبا تويوتا العظيم، أم لشركة جلبيرت المحدودة؟.

بعد ذلك، بدأنا ببناء عربات كبيرة مخصوصة بنا تُسمّى **تشي غيري غيري**، وهي تشبه عربات السباق المستخدمة في أمريكا. كانت الهياكل تُصنَع من غصون أشجار غليظة مشعبة من أحد الطرفين، وتتسع لشخص يجلس على نقطة الالتقاء. بعدئذٍ، حفرنا لنستخرج جذوراً كبيرة درنية مستديرة تُدعى كاومبو، ثمّ حفرناها على شكل عجلات، واستخدمنا أعمدة من شجر اليوكاليبتوس بوصفها محاور، ثمّ ألصقنا القطع المرتخية بعضها ببعض بوساطة لحاء الشجر أو الكرمة.

كان أحدنا يتولّى سحب العرى بحبل، في حين يوجّه السائق العربة بقدميه. كنّا نقيم سباقات من سيارتين بحيث تتجهان إلى أسفل الطريق الترابي.

– **لنتسابق.**

– **أكيد.**

– **آخر الواصلين إلى محلّ إيبونغا سيصاب بالعمى!.**

– **انطلق.**

كان محلّ إيبونغا للحلاقة هو الأول من نوعه في المركز التجاري بويمبي، والمكان الذي اعتـدت حلق شعري فيه طوال عمـري. فقد كان والدي يصحبني إلـى هناك كلّ شهر، حيث يلبسني السيد إيبونغا خرقة ممزقة، ثمّ يخاطبني قائلاً: **كيف تريد قصتك؟**.

عُلِّقت على الجدران صور لرجال بقصات شعر مختلفة، مثل قصة تايسون التي سُمِّيت بذلـك تيمّناً بالملاكم الأمريكي المشهور، إضافـة إلى القصتين: **الإنجليزية، والنيجيرية، وقصـة بـوذا**. وهـذه الأخيرة تُظهِر المـرء أصلع تماماً. كنت أختار عـادة قصة المكتب التي تعنـي أنّ طول شعري سيكون كأسنان المشط مـن دون أيّ أهداب. أعتقد أنّها كانت أرخص القصات سعراً أيضاً.

كانت مشكلـة قص الشعر في المركز التجـاري تتعلق،حتماً،بالانقطـاع المتكرّر للتيار الكهربائـي الذي اجتاح البلاد. وكان حدوث مثل هذا الانقطـاع في أثناء قيام إيبونغا بقص شعرك بالمكِنة الكهربائية أمراً عاديّاً.

يا للهول، لقد قُطِعت الكهرباء. عُدْ بعد ساعات عدّة.

ولكن....

إنّ جلـب قبعة، أو الذهـاب للحلاقة في أثناء الليل يمثِّلان فكـرة جيدة، بحيث يمكنك التسلّل إلى بيتك تحت جنح الظلام، والعودة في الصباح اللاحق لإكمال ما بدأته.

وفـي حال حصلنا علـى بعض الفكّة من أهلنـا، فقد كنّا نعرج على متجـر السيد باندا لشـراء زجاجـة فانتا بـاردة، أو حفنة من حلـوى داندي التي كان باندا يحتفـظ بها في جرّة تحـت رفـوف ملح التسهيـل (ماركة آنـدروز)، وحبوب عـلاج السعال (ماركة كـون جيكس)، ومستحضـرات الترطيـب (ماركة تـوب سوسيتي لوغجيـري)، وصبغة الشعـر (ماركة إيزي بلاك)، وحزم السمنة (ماركة بلو باند)، وقطع الصابون (ماركة لايف بوي)، والحليب الجاف (ماركة كاو بل).

أمّا إذا كنّا جائعين، فنجمع النقود التي بحوزتنا، ثمّ نتجه صوب كشك كان ينيا، الذي كان فـي الواقع قـدر ضخمة تحوي جهناً يغلي على النار، قرب مركز الخمور. كنّا نشتري من

هنـاك قطعاً لذيذة من لحم الماعز المقلي والبطاطا المقلية لقاء بعض من الكواتشا. صرخ الرجـل الذي يتولّى القدر، قائلاً: **بكم؟**. وهنا، يتعيّن على الطالب أن يجيب: خمس كواتشات . وحينئـذٍ، يقطـع البائع جزءاً كبيراً مـن الذبيحة التي تتدلّى من الخطّـاف، في حين يبتعد سـرب من الذباب الأسود عنها ليعود ويحط عليها بعد ذلك. أسقط البائعُ اللحمَ في الزيت، وأضـاف بعض الحطب إلى النار لغليه، ثمّ رمى بعض رقائق البطاطا. وحين نضج كلّ شيء، رماه على النضد، ثمّ وضع كومة من الملح لغرض التغميس.

قال جلبيرت: **أمك طباخة ماهرة. ولكن، حتى هي تعجز عن صنع شيء بهذه اللذة.**

لا فُضّ فوك.

ولما كان الإفلاس سيد الموقف في معظم الأحيان، فقد كنّا نقضي وقت الظهيرة ونحن نصـارع الجـوع، ونمّني أنفسنا ببعض الأحلام. وقد اعتدنا فـي أثناء العودة إلى البيت، لعب لعبة معينة باستخدام شجيرات تُدعى مفانغالا. كانت أزهارها الحُمر الفاقعة بديلاً مناسباً (للأطفـال) عن أقلام التلوين، وكانت سيقانها تُخبِـر بالطالع أيضاً. وكان يتعيّن على أحدنا اجتثـاث الساق، ثمّ محاولة فصلها من الوسط بالسحب. وفي حال نجحت في عمل ذلك من دون كسر الساق إلى نصفين، فهذا يعني أنّ هنالك لحماً في البيت ينتظرك على العشاء.

يا لك من محظوظ. دعني أحضر إلى بيتكم!.

ولكن، إذا كسرت الساق، فتلك قصة مختلفة.

آسف يا صديقي، والدتك في جنازة. لن تجد في البيت سوى الماء. ها ها!.

كان وقـت المساء في القرية هو أفضل الأوقات بالنسبـة إليَّ، وذلك حين تختفي أشعة الشمـس خلـف شجـر اليوكاليبتوس. وهو الوقـت الذي يفرغ فيـه والدي والعم جـون (والد جيفـري) مـن العمل في حقول الـذرة والتبغ، ويعودان إلـى البيت لتناول طعـام العشاء. في تلـك الأثناء، تنهمك والدتـي وشقيقتي الكبرى آني في تحضير الطعـام بالمطبخ، مرسلتين مختلـف أنـواع الروائح الشهية مع النسيـم. يُذكَر أنّ أبناء العمومـة جميعهم كانوا يتجمّعون

فـي الساحة التي تفصل منزلي عن منزل جيفري للعـب كرة القدم (كانت تُصنَع من أكياس التسـوّق البلاستيكيـة التي نُسمّيها جومبـوز، والتي يُربَط بعضها ببعضـ بخيط رفيع). وقد يحدث أيضاً أن يتوقّف

مُـزارِع من القرية المجاورة مع هبـوط الظلام، ليقول شيئاً ما، مثل: **سيد كامكوامبا، لـديّ شـيء ما زرعته في حديقتي**، ثمّ يفتح حزمة من الورق لتظهر بعض شتلات الطماطم الجيدة. وفي حال تفاوضا على السعر واتفقا، فإنّ والدي يزرعها خلف منزلنا.

عندمـا كان ثمر المانجو ينضج في موسم المطر، كنّا نجمع كُوماً منه، من على أشجار الجيـران، ثـمّ ننقعه في الماء في أثناء تناول طعام العشاء. بعدئـذٍ، كنّا نمرِّر الفاكهة بيننا؛ نغرز أسناننا بالفاكهة الغضّة ليسيل العصير اللذيذ من بين أصابعنا. وفي حال لم نتمكّن من اللعـب بسبب غياب ضوء القمـر، كان والدي يجمع الأطفال كافة في غرفة المعيشة، ويضيء مصباحاً يعمل بالبنزين، ثمّ يروي لنا بعض القصص الشعبية.

كان يقول: **اجلسوا وأهدؤوا هل رويت لكم قصة الفهد والأسد؟**.

قُصَّها علينا مرّة أُخرى يا أبي!.

حسناً... في أحد أيام قديم الزمان، كانت هنالك فتاتان ذاهبتان من كاسونغو إلى ويمبي. وقد بلغ التعب منهما حدّه، ولم تعودا قادرتين على الاستمرار.

جلسنـا على الأرض ضامّين ركبنا إلى صدورنا، مُنصتين إلى كلّ كلمة. كان أبي يعرف كثيـراً من القصص، وكانت قصة الفهد والأسد إحدى تلـك القصص المفضّلة لديَّ. وهذه أحداثها:

بـدل أن تأخـذ الفتاتان قيلولة على الأرض، فتّشتا عن مكان هادئ نطيف. وبعد هُنيهة، صادفتا منزلاً يسكنه رجل عجوز، فسألتاه البقاءَ عنده، فردّ قائلاً: **يمكنكما البقاء. تفضّلا بالدخول.**

وسرعـان ما غطّت الفتاتان في نوم عميق تلك الليلة، فانسلّ العجوز من الباب، ومضى في الغابة المظلمة. وهناك وجد اثنين من أعزّ أصدقائه؛ الفهد، والأسد.

صديقيَّ، لديَّ طعام شهي لكما. ما عليكما سوى أن تتبعاني.

قال الفهد: **شكراً أيّها العجوز؛ سنأتي في الحال.**

قاد العجوز صديقيه في طرق الغابة المتشعّبة، متجهاً صوب منزله. كان الفهد والأسد متحمّسين لتناول الوجبة، حتى إنّهما بدأا يغنيان بسعادة. ولكن، قبل أن يصل الجميع، حدث أن استيقظت الفتاتان؛ فقد شعرتا بالنشاط بعد القيلولة، وقرّرتا المُضي قُدَماً في رحلتهما. لأنهما لم يجدا الرجل العجوز، فقد تركتا ملاحظة تشكرانه فيها على السرير.

وصل العجوز أخيراً إلى المنزل برفقة الفهد والأسد، وقبل أن يهمّ بالدخول، قال لهما: **انتظرا هنا، سأذهب وأحضرهما.**

وجـد العجـوز السرير خاليـاً، فسأل نفسـه: أين ذهبتا؟ بحـث عن الفتاتيـن لكنّه لم يجدهما، بل وجد الملاحظة – في نهاية المطاف–، فعرف أنّهما غادرتا. وفي هذه الأثناء، كان الفهد والأسد في الخارج ينتظران بفارغ الصبر.

قال الفهد: **أنتَ، أين طعامنا؟ ألا ترى لعابنا يسيل؟.**

قال الرجل بصوت عالٍ: **صبراً، إنّهما هنا في مكان ما. دعاني أجدهما.**

أيقـن العجـوز أنّه في حال اكتشـف الفهد والأسـد أنّ الفتاتين غادرتـا، فسيصبح هو العشاء. كان العجوز يحتفظ ببقطينة ضخمة في زاوية المنزل يستعملها لحفظ ماء الشرب. فلم يجد خياراً سوى القفز داخلها للاختباء.

وبعد طول انتظار، قال الأسد: **لقد عيل صبري، سأدخل**، فقاما

بكسر الباب، لكنّهما وجدا المنزل خالياً؛ دون فتاتين، ولا عجوز، ولا عشاء.

قال الفهد: **يبدو أنّ العجوز قد خدعنا، حتى إنّه غادر هو الآخر.**

عندئذٍ، لمح الفهد طرف قميص الرجل العجوز يتدلّى من اليقطينة، فأشار إلى الأسد، وقام الاثنان بشدّ اليقطينة مراراً حتى خرج منها العجوز.

صرخ العجوز: **لا، أرجوكما، أتركاني أشرح لكما ما حدث.** لكنّ الفهد والأسد لم يصبرا حتى يسمعا القصة كاملة، فأكلاه من فورهما.

صفّق والدي بيديه علامةً على انتهاء القصة، ثمّ جال بنظره بين الأطفال، قائلاً: **إذا حفرت حفرة لأصدقائك، فحذارِ؛ فقد تقع أنت فيها. يجب أن تكون نيتك صافية تجاه الآخرين على الدوام.**

صرخنا قائلين: **قُصّ لنا قصة أُخرى يا أبي.**

ممم، حسناً... ما رأيكم في قصة الأفعى والدجاجة الحبشية؟.

نعم!.

كان أبي في بعض الأحيان ينسى أحداث القصة من منتصفها، فيصطنع أحداثاً جديدة. وقد يحدث أحياناً أن تمتد هذه القصص ساعة، وأن تتغيّر الشخصيات والدوافع. لكنّه كان يتمكّن دائماً من إنهاء القصص على نحو نفسه مستخدماً أسلوبه السحري. إنّ والدي حكواتي بالفطرة؛ ومردّ ذلك أساساً هو حياته الشخصية التي تمثّل قصة رائعة.